الحسب وتعظيم الآباء

يقول شاتوبريان : « يمكننا أن نتمثل الأنفة التى طبع بها نظام الإقطاع النفوس ، فى أن أصغر إقطاعى كان يعتبر نفسه فى مرتبة الملوك . ولقد حدث مثلا أن مرّ الإمبراطور فردريك وهو يجتاز مدينة « تونج » بالبارون « كروكنجن » فلم يقف البارون لتحيته ، بل اكتفى بتحريك قبعته تعبيراً عن ترحيبه ؛ فلقد كانت طبقة الأرستقراطيين تكبت الحريات العامة وتعادى فى الوقت نفسه السلطان الشرعى[1] » . . .

ولم يكن فى بلاد العرب نظام إقطاعى ؛ فلا « دوق » ولا « ماركيز » . وإنما كان كل عربى فى خيمته سيدا كامل السيادة ، يحسب نفسه — مهما كان فقيرا معدما — نداً لأغنى الأغنياء وأقوى الأقوياء. لقد كانوا جميعاً أحراراً ، شجعانا ، فباتوا متساوين لا يعترفون بمولى عليهم سوى رب الكون . حقاً لقد كان لكل قبيلة رئيس تعتز به ، قد فرضته فضائله وحدها وانتخبه أهلها . ولكن هذا الرئيس لم يكن يتمتع إلا بنفوذ نسبى ؛ فقد كان أفراد القبيلة يوقرونه ، ويجتمعون لديه للتشاور ، وكثيراً ما كانوا يأخذون بآرائه السديدة ، ولكنه ما كان ليستطيع أن يصدر أمراً . ولقد كان لقبه فى الواقع لقبا فخريا ، ورمزاً للتقدير ، وثناء عاما على أعظم

(١) شاتوبريان : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا (الإقطاع ، الفروسية الخ) ص ٨٢ .

القوم حكمة وشجاعة وأكرمهم ضيافة وأفصحهم لسانا . وينبئنا الجاحظ[1] أن قبيلة « نذار » كانت تنتخب أحكمها وأن « ربيعة » كانت تختار أجودها ، وأن اليمن كانت تصطفى أعرقها ، غير أنه كان لا بد من تحقق ست صفات فى طالب الرئاسة أينما كان ، وهى : الجود والبطولة الحربية والجلد والحلم والتواضع والفصاحة . وقد سئل قيس بن عاصم : كيف وصلت إلى حكم قبيلتك ؟ « فأجاب : بإذاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وفض المنازعات » ثم أضاف قائلا : « ويبلغ الرجل المكان المرموق بالذكاء والعفة والأدب والمعرفة » .

وجملة القول ، فإن رئيس القبيلة إذ ذاك كان بمثابة الملك الدستورى ، ولكن بلا امتيازات أو مخصصات ، وكان عليه — للحصول على السلطان فى قبيلته — أن يظل مفتوح الدار ، رقيق القول ، جم الحسنات ، لا يسأل سواه شيئا ، يحب الصغار كما يحب الكبار ، ويعامل جميع الرجال على حد سواء[2] . يقول أعرابى قديم : إننا لا نمنح شرف الرئاسة امرءاً ما لم يعطنا جميع ما يقتنى ، ويأذن لنا أن نطأ بأقدامنا كل ما هو عزيز لديه ، وكل ما يود أن يراه مشرّفا ، وما لم يؤد لنا ما يؤدى العبد لسيده[3].

(١) كتاب شرعة المروءة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب . طبعة وترجمة مينار وكورتى (Barbier de Meynard et Pavet de Courteille) ، باريس ١٨٦١–١٨٧٧ . الجزء الخامس ص ١٠٦ .

(٣) عن دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا من ٧١١ إلى ١١١٠ . ليد ، ١٨٦١ .

وليس الإسلام فى جملته إلا جمهورية استفتائية يتولاها رئيس تنتخبه الجماعة .

وقد حرص خلفاء محمد الأوائل — رغم أن الخليفة كان يجمع فى شخصه السلطتين الدينية والدنيوية — على أن يستشيروا مواطنيهم وأن يتبعوا رأيهم . وهذا هو أبوبكر يقول فى خطبة له يوم بويع بالخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » . كما يعلن عمر ابن الخطاب من فوق المنبر قوله : « يا قوم ، من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه » ، فيرد عليه أعرابى قائلا : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فيقول عمر : « الحمد لله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر » .

وفيما بعد ، حين صارت الخلافة وراثية ، لم يكن الخليفة يصبح حاكما شرعيا حتى ينادى به الشعب ويعترف بسلطانه . والواقع أنه لما كان العرب جميعا يعيشون حياة الرعاة البسيطة ، ويلبسون نفس الملابس، ويتناولون نفس الغذاء ، فقد كانوا لا يقرون ، بل لا يتصورون وقوع التفرقة بينهم فى العلاقات الاجتماعية . ولم يكن ثمة ما يميز عربيا من عربى آخر ؛ فالثروة لم تكن تمثل فى أعينهم امتيازا ، بل كانت تلزم صاحبها أن يسمو ويهب . ولقد كان المثل الأعلى للفارس أن يستهين بالمال ، وأن يعيش فى يومه ليومه من الغنائم التى جمعها بشجاعته بعد

أن قد أتلف تراثه جودا وإحسانا[1] . ثم لقد كان كل شيء فى حياة البدوى معرضا لأن يروح ضحية هجوم خاطف ، ولذا كان ينبغى أن نعى حرفية هذه الحكمة التى كثيراً ما ترد فى مدائح الشعراء المعوزين : « المال يقبل صباحا ويولى مساء »[2] .

ولم يكن النسب وحده شرفا ، فما كان ليخلع على صاحبه أى امتياز. وما قيمة النسب العريق وما جدواه فى ساعة الخطر ساعة :

... ... إذا طرقت إحدى الليالى بداهية

بداهية يصغى الكلاب حسيسها وتخرج من سر النجى علانية[3]

أجل ، لقد كان البأس والإقدام هما عدة أولئك المقاتلين المتربصين دائما . على أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن قط لدى المسلمين المستقرين — كما لم يكن لدى البدو — أرستقراطية بمعناها المعروف ، أى طبقة ثابتة خاصة ، فمبادئ المساواة من ناحية وتعدد الزوجات من ناحية أخرى قد حالا دون قيام « أرستقراطية » كالتى قامت لدى معظم الشعوب

---

(١) كوسان دى برسفال : بحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام . باريس ١٨٤٦ ، الجزء الثانى ، ص ٥٥٥ و ٦١١ .

(٢) حاتم الطائى .

(٣) الخنساء (ص ٨١ عائشة عبد الرحمن) .

المسيحية[1] . وهكذا كان شرف المولد اعتبارا قليل السطوة فى الشرق . ولا يعنى ذلك أن القوم لم يكونوا يجلون ذكرى عظماء الرجال أو أن هذا الإجلال لم يكن يعود على خلفهم بالتقدير والود ، بل إنه كان إلى جانب ذلك ، يعتبر هذا التقدير وهذا الود قرضا وعلى من يقترضه أن يرده أعمالا حميدة مجيدة . يقول شاعرهم :

لسنا وإن كرمت أوائلنـــا يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنـــا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا[2]

وأبسط منه قول المثل الفرنسى فى نفس المعنى : « دم كريم لايستطيع أن يكذب » . وكانت تلك هى الفكرة الأولى للأرستقراطية الحقيقية فى أوربا ، وفى فرنسا بوجه خاص . ولقد بين ذلك الأستاذان « دوفرنوا وهارمان » فأحسنا البيان ، فى كتابهما « مباراة شوفنسى سنة ١٢٥٨ » إذ قالا : « إن نبل الأصل ينبغى أن ينم عنه مجرد روح السيد واستعداده النفسى ، لأن سمو عواطف القلب يعطى الود ، والأصل يمنح النبل ، ورفعة المشاعر (أو فلنقل : النزوع إلى المثل الأعلى) يورثها الوالد الولد . وكل هذه فضائل يكمل بعضها بعضا ، وتتصل وشائج بعضها

---

(١) انظر جارسان دى تاسى (Garcin de Tassy) : « أعلام وألقاب إسلامية » مقالة فى « الصحيفة الأسيوية » عدد مايو — يونية ١٨٥٤ ص ٤٢٢ .

(٢) المسعودى ، الجزء الثالث ، ص ١١٢ .

ببعض ، وتؤلف وحدة جامعة لا تنفصم عراها [1]»

وإليكم ما قاله فى هذا المقام شعراؤنا :

يقول المتنبى :

لا بقومى شرفت بل شرفـوا بى — وبنفسى فخرت لا بجـدودى

وبهم فخـر كل من نطق الضا — د وعوذ الجانى وغوث الطريد

ويقول الفرزدق :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم — إذا جمعتنا ياجرير المحافـل

ويقول النابغة الجعدى :

بلغنـا السماء مجدنا وجـدودنا — وإنا لنرجـو فوق ذلك مظهرا

ويقول عامر بن الطفيل :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر — وفى السرّ منها والصريح المهذب

فما سودتنى عامر عن وراثـة — أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماها وأتقى — أذاها وأرمى من رماها بمقنب

---

(١) H. Duvernoy et Harmand : Tournoi de Chauvency en 1285. Paris, 1905. p. 42.

وإذا عمد الشعراء إلى المديح ، فهم إنما يمدحون فضل الأعمال أكثر مما يمدحون شرف المحتد مهما كان عريقا . وهكذا حينما أشاد الشاعر بابن عبد مناف ، فإنه لم يمدحه بنسبه — وهو الشريف الرفيع — بل مدحه بعمله قائلا :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون ، عجاف

فلم يكن لدى العرب إذن أرستقراطية ثروة ، ولا أرستقراطية نسب ، بل كان لديهم أرستقراطية فردية شخصية مؤقتة تخلعها على المرء بطولته وفصاحته ومآثره . وذلك شرف مكمل لتلك الأرستقراطية العامة المجيدة التى تخلعها على المرء صفة العروبة وحدها .

ولقد شاع فى فرنسا الاعتقاد بأن الأمة الفرنسية تنحدر بجملتها من « الفرنك » ولكن إلى من ينسب هؤلاء « الفرنك » ؟ لقد تردد أنهم رفاق « إينيه » أو سواهم ممن نجوا من واقعة « طروادة » . وذلك رأى غريب يستمد شكله من ملحمة « فرجيل » وموضوعه من مصدر آخر ، ويتصل بذكريات مختلطة ترجع إلى الزمن الذى هاجرت فيه قبائل الجنس الجرمانى البدائية من آسيا إلى أوربا عن طريق ضفاف « البونتوكسان » . ومع ذلك ، فقد أجمعت الآراء على هذا القول ، وشاطر الكهنة وأكثر الرهبان ثقافة — ممن كانوا يستطيعون قراءة « جريجوار دى تور » وكتب القدماء — شاطروا الشعب اعتقاده ، وحيوا « فرانسيون بن هكتور » مؤسسا للأمة الفرنسية

وأول ملك عليها[1] .

وأما العرب فما كانوا ليقنعوا بنسب خرافى فضلا عن أنه حديث العهد . . فقد انتسبوا إلى إسماعيل ابن العاهل إبراهيم خليل الله ، وأرسوا هذا الأصل البعيد على أدلة لا تدحض بل ليمكن القول عنها : إنها أدلة علمية ؛ إذ أن المشتغلين باستقصاء النسب عندهم كانوا من العلماء ، وظلت الأنساب علم العلوم لديهم زمنا طويلا . ولما كان العرب جميعا أبناء إسماعيل ، فقد اعتبروا أنفسهم بحق أشرف شعوب الأرض طراً وأعلنوا ذلك على الورى وألفوا ديمقراطية شريفة . فالجميع فى بلاد العرب شرفاء، ولكل قبيلة نسبها ، وأمثالها ، وأيامها المجيدة ، وشعراؤها ، وأبطالها ؛ فإذا اعتبرت قبيلة أشرف من الأخرى فما ذلك إلا لأنها ترجع فى درجات النسب إلى طبقة أقرب إلى الأصل ، وتنحدر انحدارا مباشرا من الجد الأعلى ، إسماعيل أو قحطان . فكان ذلك هو فخر الجنس . . فخراً جماعيا لا يقتصر على أسرة واحدة ، بل يشمل قبيلة بأسرها . ولقد كان المرء يفتخر بقبيلته قبل أن يفتخر بعائلته ، وكانت أمجاد كل أسرة على حدة تؤلف تراثاً يعود على المجموع ، ويزيد ويقوى من جيل إلى جيل ذخر المآثر والمحامد . وهكذا كانت القبيلة هى المركز الرئيسى الذى ينتمى إليه كل أبنائها ومنه يستمدون المجد سواء فى ذلك أهونهم شأنا وأعظمهم قدرا .

---

(١) أوجوستان تيرى : قصص عن عهود الميروفنجيين ، ص ١٧ .

ولن يستطيع تعبير أن يصف ما كان يربط العربى بقبيلته من ولاء وعاطفة ووفاء وتعظيم : ولاء مطلق ، وعاطفة لا تتزعزع ، ووفاء لم تصنعه الإرادة ولا يقف عند حد ، وتعظيم كالتقديس . . شعور أعمق من الوطنية ، وحمية أقوى من العقيدة ، تحفز إلى المخاطر ، إلى الحروب ، إلى جميع بطولات العرب ؛ فالعربى ، من أجل قبيلته ، على أهبة لكل تضحية ، لا يتردد ولا يفكر ، بل هو يعرض فى كل لحظة حياته للهلاك من أجلها ويقدم على المغامرات الجنونية متى كان لقومه فيها منفعة وسعادة ومجد وشرف .

قال أحد الخلفاء : « أكرم قبيلتك، فإنها الجناح الذى يرفعك ، وبها تستطيع أن تكبر وتسود . وأهلك درع لك ضد الخصوم ، فأكرم شرفاء الرجال ، وعد المرضى ، وأسعف المنكوبين ، وشاطر الجميع أفراحك وآلامك » .

وكان الجميع متحابين إذ يحبون وطنهم الصغير ، وكانوا يتعاونون ويشعرون فيما بينهم بسعادة كل منهم أو شقائه ، فهم يشيدون بمناقب هذا ويهرعون إلى إغاثة ذاك ، ويتأثرون جميعاً لإهانة لحقت بأحدهم . ولقد كانوا يؤلفون فيما بينهم ما يشبه جماعة عاملة طهرت من كل خسة ، وغرست فيها وتفتحت أجمل أزهار التضامن والحب .

لقد كانوا فى الواقع يؤلفون أسرة واحدة متآلفة يتنادى فيها الأتراب من الرجال والفتيات متعاطفين بقولهم : يا ابن العم أو يا ابنة عمى .

أو يا أختاه . . . أما الشيوخ فقد كان الجميع يجلونهم ، ويخاطبونهم بيا « عمى » أو « أبى » . وفى تلك الجماعة التى كانت تطبق — فى دائرة محدودة تطبيقا مطلقا — قول المسيح : « أحبوا بعضكم بعضا » ، كان الكل يعملون من أجل خير المجموع ومن أجل خير كل فرد . وكانت القبيلة تشبه خلية النحل لكل امرئ فيها مهمته المعينة : فالشاعر يتغنى بمآثر أهله وبطولاتهم ، وعلماء الأنساب يحفظون فى ذاكرتهم موكب الجدود ، والصناع ينسجون أقمشة يتفننون فى تزيينها لتكون خير كساء ، ويصوغون أسلحة يجيدون شحذها لتصبح خير سلاح ، والنساء يصنعن الرجال ، والرجال يفوقون الأسود قوة وشجاعة .

وفى داخل هذه الأرستقراطية الجماعية — أرستقراطية القبيلة — نهضت أرستقراطية أخرى هى أرستقراطية الأسرات .

فى الإسلام أصبح الشرف يقدر من وجهة نظر دينية خالصة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] .

ومنذ ذلك الحين اقتصر الشرف على سلالة النبى وسلالة الصحابة أى أوائل من اعتنقوا الإسلام ، فالشريعة الإلهية هى التى تخلع على الإنسان أعظم الشرف .

وأخيراً وفى نطاق شرف الأسرة ، كانت تسطع أرستقراطية الأفضل

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢) .

أو سيادته ، أى الجدارة الشخصية الفردية . أجل ، لقد كان الجنس شريفا نقيا ، وكان العربى صحيح العروبة ومن قبيلة مجيدة ، وكان ينتمى إلى اسرة شهيرة بالفضل من عهد بعيد ، ولكن ذلك كله ما كان يغنيه ، بل كان على كل رجل بدوره — معتمدا على فضائله وحدها — أن يكتسب ويغتصب تقدير أهله واحترامهم ومحبتهم وإعجابهم . . . كان عليه أن يمتاز بالحكمة والسخاء ، وبالشجاعة والفصاحة ، وبحماية النساء والضعفاء ، وباحترام أتباعه ، وكرم ضيافته ، وكان عليه فى حلبة الفضائل العربية أن يفوز بالسبق وأن يستحق أجمل صفة . . صفة « الكمال » المجيدة . ويالها من نظرية مليئة بالعظمة والفلسفة الاجتماعية التى تنقى ، وتجمل ، وتشرف الإنسان جسدا وروحا : فلقد كان أنبل الرجال وأجدرهم بالتشريف ، ذلك الذى يؤدى أعظم الفعال وأكرمها وأشدها بطولة ونفعا . وكان ذلك هو الرجل الكامل ، والأرستقراطى بكل معانى هذه الكلمة ، فهو خلاصة الخير ، وأفضل الناس ؛ وإذ ذاك تصبح الأشياء المحيطة به أفضل الأشياء : فخيمته أفسح الخيام وأرحبها وأثمنها نسيجا ومقتنيات ، وجياده أكرم الجياد وأشدها جلدا وأسرعها فى السباق ، وأسلحته أبهى الأسلحة التى تضيف إليها شجاعته رونقا جديدا دائما . وهكذا كان العرب يتصورون الشرف .

وإلى جانب ذلك ، فقد كان الحال إذا تحالفت عدة قبائل لتشن حربا ، أن تعين لرئاستها جميعا قائدا واحدا لا يكون له بعد أن تضع

الحرب أوزارها حق التصدر على أقرانه من الرؤساء الآخرين . ولقد جرى العرف فى ذلك على إسناد هذه القيادة العليا إلى من تسفر عنه القرعة ، شابا كان أم شيخا ، وإن كان يحدث أحيانا أن يعهد الحلفاء بقيادة الحرب إلى أعظمهم نسبا وشجاعة بإجماع الآراء . وعلى هذا النحو انتخب « حرب بن أمية » قائداً عاما لقبائل قريش فى حرب « الفجار » .

ومن هنا نفهم مبلغ اهتمامهم بذكريات جدودهم إلى حد اتخاذهم من الأنساب علما من العلوم ، بل لقد كان يروق لهم فى كل زمان ومكان ، فى ميادين القتال وفى الأسمار ، أن يذكروا أنسابهم وبطولات أجدادهم ومآثرهم . وكان ذلك هو موضوع مناقشاتهم المعتاد ، وأحب ما ينفقون فيه أوقاتهم ، ومدار كبريائهم ومباهاتهم ؛ فما من قصيدة فى العصر الجاهلى إلا تضمنت أبياتا طنانة فى الفخر تشيد بمجد السلف . وهذه هى المعلقات وأشعار السموءل والشنفرى تتجاوب بأسماء عريقة ، وتذيع على الملأ مآثر القبيلة ، وكثيرا ما تطنب فى تفصيلها . وإليكم عمرو ابن كلثوم يقول :

ورثنا مجد علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد حينا
ورثت مهلهلا والخير منه ... زهيرا نعم ذخر الذاخرينا
وعتابا وكلثوما جميعا ... بهم نلنا تراث الأكرمينا
وذا البر الذى حدثت عنه ... به نُحمى ونحمى المحجرينا
ومنا قبله الساعى كليب ... فأى المجد إلا قد ولينا

ولقد كانت الأسماء العريقة والفعال الهامة تتعهدها الذاكرة . ففى عصور البساطة تلك ، كانت الرواية بمثابة العلم الوحيد الصحيح . ولم تكن هناك دور للمحفوظات ، بل حتى لو كانت الكتابة معروفة إذ ذاك لاستغنى عنها البدوى ، فهو حاد الذاكرة ويضيق بالتدوين والترقيم . ومن أراد أن يقف على مدى ما احتلته الأنساب من مكانة فى الشرق زمنا طويلا ، فليفتح أى كتاب من كتب التاريخ ، أو الفلسفة ، أو الغزل أو التوحيد، ولسوف يجد فى تقديم كل واقعة وكل قول قائمة مملة من الأسماء على هذا النحو : « حدثنا فلان بن فلان بن فلان. . . إلخ» . فقد بلغ من تعظيم العرب للأنساب أنهم كانوا بصدد أى حادث أو شخصية يظلون يصعدون فى عصور التاريخ من أب إلى جد حتى يصلوا إلى آدم أبى الجنس البشرى .

ولقد أعلن النبى أن علماء الأنساب دجالون ، ونهى أن يتجاوزوا البحث فى النسب معد بن عدنان ، وعدنان هو ثامن أو تاسع أحفاد إسماعيل بن إبراهيم . على أن من أتقياء المسلمين من واصلوا الانتساب إلى جد أقدم من عدنان ، لأنهم ظلوا مقتنعين بأن مزاعمهم قائمة على أدلة لا سبيل إلى ردها . وهكذا يبدأ « أبو الفتح الإسكندرانى » — وهو كاتب ذائع الصيت من أدباء النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — موسوعة كبيرة عن الحيوان (فى ٦١ مجلدا) ، بقائمة مسهبة فى سرد أسماء أجداده ، تنتهى بآدم .

وإن هذه الأفواج المتلاحقة من الأعلام التى تشغل حيزاً كبيراً من المصنفات العربية ، وهذا الترف فى ذكر الأسماء — مما لا نجد له مثيلا فى أى مكان — لأمر يبدو لنا الآن مملا غير ذى جدوى ، ولكن علم الأنساب — إلى جانب الشعر وفن الخطابة — كان الغذاء العقلى الرئيسى للعرب . فلقد كان يمدهم بمادة من الألغاز والطرائف وروايات الغزل ؛ إذ كانوا بالاستناد إلى بعض الإشارات يصلون إلى استعادة سلالات الأسرات والمصاهرات التى ربطت كل أسرة بطبقة من طبقات قبيلة ما. وحسبنا مثل واحد ، هو قصة اقتران أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد بفتاة فلاحة . ولقد عرض للملوك فى كل مكان أن يتزوجوا راعيات حسناوات ، بيد أن بطلة قصتنا هذه لم تكن مجرد راعية حسناء . أجل ، فإنها لم تسب قلب الخليفة بعينيها النجلاوين فحسب ، ولكنها أسرته فوق ذلك بعلمها المحيط بالأنساب :

حدث فى ذات يوم أن خرج الخليفة المأمون للصيد ، فسبق حاشيته ، ووصل وحده قرب مجرى صغير من روافد الفرات . وهنالك لمح فتاة مقبلة على الضفة ، تحمل سقاء من الماء على كتفها . فأوقف الأمير جواده يتأمل مليا قامتها الهيفاء ، وصدرها الناهد ، وحركاتها الرشيقة ، وحسنها الوضيء . ويسقط سقاؤها فى اللحظة ذاتها وينسكب الماء ، فيتقدم الخليفة منها قائلا :

— يا صبية ، من أى قبيلة أنت ؟

— إنى من قبيلة بنى كلاب[1] .

فقال الخليفة وهو يعبث بالألفاظ :

— ماذا ؟ أتنتسبين يا صبية لقبيلة الكلاب ؟

فأجابته الفتاة فى حدة :

— لست من قبيلة الكلاب ، وإنما أنتمى لقبيلة كرم أهلها ، ولم يلمهم لائم ، وعرفوا كيف يبذلون القرى وكيف يسددون ضربات الرماح والسيوف . . . ومن أين أنت أيها المتعجرف ؟ وما نسبك ؟

فأجاب الخليفة :

— إنى من مضر .

— من أى قبائل مضر ؟

— من أعرقهم أصلا ، وأعظمهم جدوداً ، وأفضلهم أبوة وأمومة ، من أولئك الذين يعظمهم جميع مضر .

— إذن فأنت من بنى كنانة ، ولكن من أى فروع بنى كنانة أنت ؟

— من أشرفهم دما وأمجدهم أصلا ، وأجودهم يداً ، من أولئك الذين يجلهم جميع بنى كنانة ويخشونهم .

---

(١) سئل أبو دانس الكلبى لماذا تطلقون على عبيدكم أسماء جميلة مثل سرور وجوهر ومرجان وعلى أبنائكم أبغض الأسماء مثل كلب وكليب ومرارة ، فأجاب : إن عبيدنا قد أعدوا لنا أما أبناؤنا فقد أعددناهم للأعداء .

ـ أفأنت من بنى قريش ؟

ـ نعم إنى قرشى .

ـ فمن أى فرع من بنى قريش ؟

ـ من ألمعهم صيتا ، وأرفعهم مجدا ، من أولئك الذين يحترمهم جميع بنى قريش ويرهبون جانبهم .

ـ والله إنك لمن بنى هاشم جد النبى ، فمن أى أسرة من بنى هاشم أنت ؟

ـ من أعلاهم مكانا ، من باتوا زينة القبيلة وشرفها ، من أولئك الذين يخافهم ويعظمهم ويبجلهم جميع بنى هاشم .

فخرت الفتاة ساجدة تقبل الأرض وهى تقول :

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين ! السلام عليك يا إمام الله سيد العالمين .

فطاب الخليفة نفسا وطرب ، وأنهض الفتاة وقد بدت له غنية بالجمال غنية بالمعرفة وقال فى نفسه : « والله إنى لمقترن بهذه الصبية اللطيفة ، فهى أثمن خير عسانى أن ألقاه » . وإذ لحقت به حاشيته ، أرسل فى طلب أبى الحسناء ، وسأله فى الحال يد ابنته . . . فأصبحت أم العباس بن المأمون . . .

على أن ذكر الأنساب لم يكن يؤدى إلى الزيجات السعيدة بقدر ما كان يؤدى إلى التنازع والتحدى والنقائض البلاغية بين القبائل وبين

الأفراد كذلك . وقد اشتهرت المشاجرات على الشرف بين اليمن ومضر ، وبين الأوس والخزرج ، وبين فزارة وبنى هلال ؛ كل قبيلة تدعى أنها أمجد من غريمتها ، إذ هى أعرق أصلا وأروع ذخيرة بالأعلام الذين تجلوا عبر تاريخها .

وكذلك حفظ لنا الرواة قصص المجادلات المعروفة « بالمنافرات » أى المشاجرات حول الأنساب ، مما نشب إبان الجاهلية بين شخصيات عظيمة الشرف ، كالمنافرة بين عامر بن طفيل بن مالك وعلقمة بن علاثة بن عوف ، والمنافرة بين جرير البجلى وخالد الكلبى ، والمنافرة بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس . . . وكانت المنافرات تجرى بطريقة من أبسط الطرق ؛ إذ يتحدى أحد المتنازعين الآخر ، ويتفقان على الرهان وعلى اختيار الحكم بينهما . وكان الحكم فى العادة شيخاً من المشهورين بالنزاهة ومعرفة الأنساب . وكان الرهان فى أكثر الأحيان قطيعا من مائة ناقة يوزعها الفائز فى سخاء على أهل قبيلته . فإذا مثل المتنافران أمام الحكم ، أشاد كل منهما بمجد أجداده ومآثرهم ، وانطلق يفتخر بمناقبه الشخصية مثل قوله « إن أبى هو معبد الشهير بزرارة وأمى معزة ، وإن عشرة من عمومتى ومثلها من خئولتى تولوا رئاسة القبيلة ، ولقد أجار جدى ثلاثة ملوك متحاربين وأفلح فى حمايتهم جميعا ، وهذه القوس قوس عمى التى وضعها بين يديه ملك العجم شهادة على العهد الذى

قطعته العرب قاطبة »[1] .

« وأما أنا فلى عشرة أبناء شجعان أسخياء ، ويشاطرنى مالى أدنى البائسين ، وإنى لأحمى اليتيم والنساء والمظلومين ، وفى يوم الوغى لا يعادل بأسى سوى حلمى . . . » .

وبعد أن يصغى الحكم ويفكر ، ينطق باسم الفائز ، أى باسم ذلك الذى ارتأى أنه أشرف بأجداده وفضائله .

ويجدر بنا — فى ختام ما أسلفناه عن اهتمام العرب بالأنساب اهتماما بالغا — أن نتساءل : هل عرف العرب هذا العلم الحديث الذى اختص بدراسة فنون الشعار لدى الأشراف ؟ وهل اقتبست منهم أوربا فكرة الشعار واستخدامه كما يرى بعض الكتاب ؟ والجواب أنه قد أدت « أبحاث فى أصول الشعار » نشرها الأستاذ أدالبيردى بوون (Adalbert de Beaumont) إلى النتائج التالية :

أولا — لم يتخذ الأشراف شعارا فى فرنسا إلا عقب الحرب الصليبية الأولى — فى عهدى لويس السابع وفيليب أوجست .

ثانيا — كان اقتباس الفروسية والمباريات والشارات فى أوربا تقليدا للعرب وللفرس[2] .

---

(١) منافرة ابن زارة وخالد بن مالك .

(٢) ص ١٢٧ .

ويذكر « لافيس ورامبو » فى كتابهما « التاريخ العام »[1] ــ عند استعراض النتائج الواقعية للحروب الصليبية ــ أن الفرسان قد عمدوا إلى اتخاذ علامات مميزة لهم، لكى يعرف بعضهم بعضا وسط حشود المحاربين ، ولقد كانوا اعتادوا فيما قبل ، أن يزينوا دروعهم برسم زخرفى . . . فأصبح هذا الرسم الزخرفى أثناء الحروب الصليبية علامة دالة على الأسرة لم تتغير بعد ذلك . وهكذا تكون منهج الشارات ــ الذى أطلق عليه فيما بعد اسم « الشعار » ــ وولد فى الشرق كما تدل على ذلك الأسماء الشرقية التى تستخدم فيه مثل : gueules (جول) للون الأحمر من كلمة «غول» و rose أى « وردى » ، و azur (أزور) أى « لازوردى » وهو اللون الأزرق ، وكلمة فارسية « سينوبل » sinople أى اللون الأخضر ، وكلمة يونانية بمعنى العملات الذهبية « بيزان » bezants ، أما الصليب الذى يرسم فى الشعار فهو المعروف « بالصليب اليونانى » . . . إلخ .

ولسنا نزعم أننا نناقش هنا تاريخ « الشعار » أو نبحث عن مهده ، ولكننا نرى أنه كما عمد الفرسان ــ لكى يتعارفوا وسط حشود المحاربين ــ إلى اتخاذ علامات مميزة ، فقد عمد العرب كذلك إلى الاستعانة برموز وشارات معينة لتمييز كل قبيلة من الأخرى ؛ فكان لكل قبيلة رايتها التى تصونها وتحرص على رفعها حتى بعد أن وحد الإسلام جميع العرب ،

---

(١) الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ و ٤٧ .

بل لقد كان لهم حتى فى أوقات السلم أعلام خاصة يرفعونها على أبواب مساكنهم حتى يعرفها الناظر من بعيد .

ولما كانوا يتباهون باللون الأصفر — رمز ملوك اليمن — ثم باللون الأحمر — رمز أهل الحجاز — فلا شك فى أنهم تخيلوا شارات خاصة للتمييز وسط تلك المجموعات من الأعلام الصفراء والحمراء التى تهافتوا عليها . ومهما يكن من أمر ، فإن لدينا من الفروض القوية ما يقوم مقام البراهين فى الاستدلال على أن أوربا قد استعارت من العرب فكرة الشعار وفن الشارات .

فهل خطر ببال فرسان فرنسا وإنجلترا — حين مضوا يرفعون أردانا من النسيج الهفهاف بمثابة الرايات ، وقد جهدوا فى مبارياتهم حتى ينتصر لواء سيدتهم المحبوبة — هل خطر ببالهم أنهم ما كانوا فى ذلك سوى مقلدين ما فعله النبى ؟ ؛ فإن التاريخ ينقل إلينا أن النبى كان قد أعطى جنوده المحاربين قطعة من الحرير — بمثابة العلم — كانت لزوجته عائشة ، وقد دعى ذلك العلم الأسود[1] باسم « العقاب » وعهد بحراسته إلى على بن أبى طالب .

---

(١) كانت أعلام العباسيين كذلك سوداء ، وكانت أعلام الأمويين بيضاء ، وأعلام الفاطميين خضراء . وقد جمع علم مملكة الحجاز الجديدة هذه الألوان الثلاثة (الأسود والأبيض والأخضر) فى صفوف أفقية على عصابة عمودية حمراء قانية (فالأحمر القانى هو لون علم شرفاء ملكة الهاشميين) .